

منزلة النحو العربي في كتاب مبديء النحو العام لهلمسلف.

- The Status Of Arabic Grammar In The Book "Principles Of General Grammar" By Hjelmselev.

*ابن شماني محمد.

جامعة غليزان، (الجزائر)، mohammed.benchemani@univ-relizane.dz

تاريخ النشر: 2022/09/28

تاريخ القبول: 2022/03/16

تاريخ الاستلام: 2021/09/08

ملخص: تهدف في هذا المقال إلى إبراز منزلة النحو العربي في كتاب مبديء النحو العام *principes de grammaire générale* الذي ألفه لويس هلمسلف *L.Hjelmselev*. لقد بدا جليا أن موقفه من النحو العربي القديم كان موقفا خاطئا، وذلك استنادا إلى الفقرات التي خصصها لهلمسلف للنحو العربي، وفي جعله النحو العربي نحوا تابعا في أصوله ومبادئه إلى النحو الإغريقي، و إلى المنطق الأرسطي أيضا، مما أدى به إلى عدم إدراجه له ضمن قائمة المدارس النحوية العالمية التي انتقاهها وعدّها الأصل الأصيل الذي اتخذته سائر البحوث والدراسات اللسانية عبر مَرّ التاريخ الإنساني؛ وما هو كذلك فإنّ الكتاب يتضمن بعدا إيديولوجيا معينا. **كلمات مفتاحية:** النحو العربي، النحو العام، هلمسلف، الإغريقولاتينية، الإيديولوجيا المدارس النحوية.

Abstract: In this article, we aim to highlight the status of Arabic grammar in the book Principles of General Grammar "Principes de Grammaire Générale", written by L.Hjelmselev. It seemed clear that his stance on the old Arabic grammar was fallacious, based on the passages Hjelmselev dedicated to Arabic grammar, and in making the Arabic grammar a follower in its origins and fundamentals to the Greek grammar, and to the Aristotelian logic as well, which led him not to include it in his list of the international grammar schools that he selected and considered the origin that was used in all linguistic researches and studies throughout the course of human history; as such, the book includes a certain ideological dimension.

Keywords: Arabic Grammar, General Grammar, Hjelmselev, Greco Latin. Ideology, Grammar Schools.

*المؤلف المرسل: ابن شماني محمد، الإيميل: mohammed.benchemani@univ-relizane.dz

1. مقدمة:

يعد كتاب " مبديء النحو العام " تأليف هلمسلف من المؤلفات التي تهدف إلى دراسة العديد من المسائل والقضايا اللسانية ذات التوجه العام؛ إذ يندرج موضوع الكتاب ضمن مباحث اللسانيات العامة وكذا التاريخية؛ لذا نلغيه ينظر إلى القضايا اللسانية من زاوية عامة في الأقل ظاهريا، إلا أننا عندما تصفحنا الكتاب المذكور - والمقدمة منه خاصة باعتبارها مدخلا له- وجدنا هلمسلف قد اتخذ من النحو العربي موقفا معينا تجلّى في جعله النحو العربي نحوا تابعا للفكر الفلسفي الإغريقي ولأرسطو تحديدا، ولم ينظر إليه باعتباره نحوا مستقلا له خواصه الشكلية والدلالية فضلا عن تميّزه بسياق علمي و ثقافي فريدين في نشأته، فكان من نتائج ذلك عدم إدراجه له ضمن المدارس النحوية العالمية التي انتقاها وهي: الإغريقولاتينية والهندية واليابانية والصينية، فكانت هذه المدارس تمثل لديه المبدأ الأول والحقيقي لنشوء الأنحاء العالمية التي ذكرها، أو بعبارة أخرى؛ ما كان للنحو العربي أن يكون له وجود لولا تلك المدارس النحوية الأربع والإغريقولاتينية منها بخاصة. وإذا كان هذا هكذا، كان يكون متخذًا سمّت سلفه المستشرقين مأمّأ في سلبهم عن التراث اللساني العربي عموما

كل مزية أو خاصية تصيّر فكر لسانيا، ونحويا أيضا متفردا وأصيلا وعلميا، وهنا يتجلى لنا بعدد آخر هو البعد الإيديولوجي في الكتاب .

بيد أننا قبل مناقشة ما كتبه هلمسلف عن النحو العربي والوقوف على طبيعة الحيز الذي خصّه به، علينا أولا أن نقدم لمحة عن الكتاب والكاتب كي يتسنى للقارئ معرفة السياق الفكري الذي ينتمي إليه هلمسلف، وكذا تحديد مسوغات ومنطلقات موقفه تجاه النحو العربي على الخصوص، والفكر اللساني العربي على العموم .

2. التعريف بالكتاب :

يعد كتاب "مبادئ النحو العام" من الكتب البارزة في الفكر اللساني الغربي الحديث، وعنوانه — وإن كان لا يشير إلى قضايا لسانية حديثة كما هو شأن المؤلفات اللسانية الحديثة — فإنه تضمن العديد منها مما له صلة مباشرة بمبادئ وأسس اللسانيات العامة التي دعا إليها علماء اللسانيات قبله، ولكن على الرغم من ذلك يظل كتاب هلمسليف " مبادئ النحو العام " كتابا خطيرا في بابهِ.

لقد غلب هذا الكتاب طابع التخصص الضيق إن صح التعبير؛ لأجل ما تطرق إليه المؤلف من مسائل ومباحث نحوية تنزع منزع صياغة القوانين العامة للنظرية النحوية على غرار القوانين اللسانية العامة.

من هذا المنظور يمكن أن يصنف هذا الكتاب ضمن كتب اللسانيات في جهة وضمن كتب النحو العام كما هو دال عليه عنوانه في جهة أخرى. لقد طبع كتاب مبادئ النحو العام أول مرة سنة 1928، في الدنمارك، وبلغت عدد صفحاته 363 صفحة، وجعله هلمسليف منحصرًا في مقدمة مختصرة وخمسة فصول ثم عقبها ببيليوغرافيا. هذا وقد ضم كل فصل مباحث فرعية بحسب ما تقتضيه مادته، من ذلك الفصل الأول الذي خصه بعنوان " تعيين الحدود "، فقد فرعه هلمسليف إلى ستة مباحث، في حين عنون الفصل الثاني " بالشكل النحوي " وفرع عليه مبحثين فقط، أما الفصل الثالث فقد اختار له عنوان " المقولة النحوية " و قد تضمن ستة مباحث أيضا، وجعل عنوان الفصل الرابع " النسق النحوي " و مباحثه ثلاثة، وأخيرا انتقى للفصل الخامس عنوانا هو " أساس نظرية المقولات " وقد جاء هذا الفصل خلوا من المباحث الفرعية بخلاف الفصول الأربعة المتقدمة، هذا فيما له صلة بصورة الكتاب أو بشكله العام باختصار.

3. صاحب الكتاب " هلمسليف " : L.Hjelmslev

أما لويس هلمسليف فهو شخصية لسانية دنماركية مشهورة عالميا، إنَّ الذي جعل منه كذلك هو نظريته اللسانية المعروفة، نعي بذلك: الغلوسيماتيكية La Glossématique ولقد استطاع هلمسليف أن يؤثر في المسار التكويني للسانيات الغربية بأرائه وتصوراتهِ اللسانية المتميزة، بخاصة في التوجه البنوي؛ إذ اتخذت البنوية معه منحى مغايرا للتقاليد التي كان يسير عليها معظم البنويين في اللسانيات نظريا وتطبيقيا، ولأدل على ذلك من ولادة تيار بنوي سيميائي يتبنى آراءه اللسانية في النقد والأدب، أو ما بات يعرف بمدرسة باريس السيميائية التي كان رائدها غريماس.

أفرد كنيذ توجيبي Knud Togeby ترجمة وافية لهلمسليف في مقال له عنوانه "لويس هلمسليف، 03 أكتوبر 1899، 30 ماي 1965" ¹ Louis Hjelmslev : 03 octobre 1899, 30 mai 1965 ونحن سنوجز ذلك انتقاء لأهم المحطات البارزة في حياته العلمية.

ولد لويس ترال هلمسليف في الثالث من شهر أكتوبر من عام تسع وتسعين وثمانمائة وألف في مدينة كوبنهاغن الدنماركية، وقد تلقى تكويننا فكريا ولسانيا خاصا، كما عرف عنه اهتمامه بالنحو في أول الأمر وفي المرحلة الثانوية تحديدا،

وذلك لتأثره بأشهر عالم لساني في الدنمارك، وهو أوتو يسبرسن Otto jespersen؛ إذ كتب عنه مقالا لسانيا سنة 1923. وقد خصص هلمسليف معظم سنواته في الجامعة لدراسة النحو، وفي سنة 1923 انكب على متابعة المحاضرات التي كان يلقيها " زيباتي " Zubaty في موضوع نحو اللغات الهندوأوروبية، كما كان له اهتمام بدراسة اللسانيات العامة وقت وجوده بمدينة باريس من سنة 1926 إلى سنة 1927؛ بحيث درس ذلك على يد كل من "أنطوان ماييه " A.Meillet و"فندريس " Vendryes.

بناء على هذا عدّ هلمسليف نفسه السنتين اللتين قضاها في باريس بمثابة ولادة فكرية جديدة له، وقد تجلّى ذلك بوضوح في كتاباته اللسانية التي آثر أن تكون باللغة الفرنسية، وفي سنة 1928 نشر أول مؤلف له هو: "مبادئ النحو العام"، وكان هذا الكتاب في الأصل مبرجحا ليكون أطروحته في الدكتوراه، ولكنه اكتفى بطبعه في منشورات الجمع الملكي للعلوم والآداب، فيكون هلمسليف بهذا قد وضع أسسا لنحو عام يقوم على اللغة نفسها في ذلك الكتاب، وأيضا على إمكانيات البناء والتأليف في استقلال عن العلوم المجاورة من قبيل علمي المنطق والنفس.

وعليه، يكون هلمسليف قد صاغ فكرته الأساسية عن النحو الصوري أو الشكلي، وبالفعل فقد تحدث عن شكل نحوي مجرد وجبري كذلك. وفي سنة 1931 شرع في تأسيس حلقة كونهانغ اللسانية على السميت نفسه الذي اتخذته حلقة براغ اللسانية وكذا جمعية باريس اللسانية، وكان قد احتك بعلماء المدرستين خلال المؤتمر الدولي الثاني للسانيين في مدينة جنيف سنة 1931؛ إذ قام بعد المؤتمر الدولي مباشرة بعقد لقاء تأسيسي وكان ذلك بتاريخ 24 سبتمبر من عام 1931.

وقدّم هلمسليف في سنة 1933 مداخلة علمية للحلقة اللسانية موضوعها الحالات الإعرابية، فكانت سببا مباشرا لتأليفه لكتابه الثاني حول الحالة الإعرابية، وقد اختار له عنوانا هو: " مقولة الحالات الإعرابية، دراسات في النحو العام " La Catégorie des cas etudes de la grammaire générale ويعد هذا الكتاب دليلا لكتابه الأول مبادئ النحو العام الذي طبع سنة 1928. وفي سنة 1936 قدّم هلمسليف مصطلحا لسانيا جديدا هو الغلوسيماتيك La Glossématique وكان الغرض منه هو تعيين الوصف اللساني الصوري المحض²، ناهيك عن مصطلحات لسانية أخرى منحوتة من كلمات ذات أصول إغريقية قديمة.

لقد عرض هلمسليف لأول مرة الغلوسيماتيك سنة 1936 في المؤتمر الدولي الرابع للسانيين الذي انعقد في مدينة كونهانغ، وهو ما أتاح له صياغة نظرية لسانية خاصة. وفي سنة 1939 أسس هلمسليف مع زميله فيغو برونالد Viggo Brondal مجلة العمل اللساني Acta linguistica التي حملت بالإضافة إلى هذا العنوان، عنوانا آخر فرعيا هو: "المجلة الدولية للسانيات البنوية" ومنذ ذلك الحين صار الباحثين البارزين والمهيمنين على الحلقة اللسانية الدنماركية.

وفي سنة 1943 ظهر لهلمسليف أهم مؤلفاته على الإطلاق في حقل اللسانيات البنوية، نعني به كتابه العمدة: " مقدمات في نظرية اللغة " ³ Prolégomènes à une théorie du langage وهو كتاب تميز بطابع تجريدي خالص، مما صعب القضايا والمسائل اللسانية التي تطرق إليها هلمسليف فيه؛ لأجل المصطلحات التي وظفها فضلا عن طبيعة المادة العلمية التي درسها، وكذا طريقة الطرح التي تبناها؛ إذ هي ذات نزعة رياضية منطقية مجردة.⁴

هذا، ولم يكن هلمسلف منكبا على البحوث اللسانية فقط، بل كان له إسهام فعّال في التسيير الإداري، لاسيما إدارة الجامعة، فقد كان عميدا لكلية الآداب من سنة 1947 إلى سنة 1948، وعضوا في مجلس الإدارة سنة 1948، ومساعدًا لرئيس الجامعة من سنة 1952 إلى سنة 1953، كما كان عضوا في لجنة مؤسسة راسك أورستيد Rask Orsted من سنة 1947 إلى سنة 1964، ورئيسا لرابطة الأساتذة الجامعيين من سنة 1948 إلى سنة 1956، بالإضافة إلى مهام إدارية أخرى وجمعية أيضا.

لقد وصل تأثير أفكار هلمسلف اللسانية إلى جميع أنحاء العالم من أوروبا وأفريقيا إلى أمريكا وآسيا، خاصة في سنوات الخمسينات من القرن المنصرم، ودليل ذلك هو ترجمة أعماله اللسانية إلى لغات عالمية عديدة. توفي هلمسلف في يوم 30 من شهر مارس سنة 1965.⁵

4. ذكر بعض مؤلفاته:

نكتفي في هذا المقام بذكر أهم مؤلفات هلمسلف من دون تفصيل في وصفها على النحو الآتي :

- مقدمات في نظرية اللغة .
 - مبادئ النحو العام .
 - مقولة الحالات، دراسات في النحو العام .
 - اللغة .
 - محاولات لسانية .
 - محاولات لسانية جديدة .
 - مختصر نظرية اللغة .
- بالإضافة إلى العديد من المقالات والمحاضرات التي ألقاها في الدنمارك و خارجها.

5. منزلة النحو العربي في الكتاب:

لقد حدّد هلمسلف الهدف من تأليفه لكتابه " مبادئ النحو العام " في المقدمة؛ إذ جعل ذلك منحصرا في إمكانية وضع أو صياغة نظرية لنسق مورفولوجي للغة؛ كما سعى إلى تثبيت بعض المبادئ الأساسية التي ينبغي أن توجه الدراسات اللسانية، مما يعني أنّ لهذا الكتاب خواصا نظرية خالصة.⁶

خصّص هلمسلف الفصل الأول لتعيين حدود النحو، وضمن هذا الفصل تطرق إلى مناقشة العديد من المسائل والقضايا اللسانية الجوهرية ذات الصلة بمفهوم النحو العام، ولعل من أهمها المبحث الذي عنوانه بالنحو العلمي la grammaire scientifique؛ إذ يمكن عدّه مبحثا تمهيدا فصل فيه هلمسلف بعض المسائل الضرورية من قبيل نظرتة إلى اللغة الإنسانية، ومفهوميّ النحوي و اللانحوي، وطبيعة العلاقة التي تجمع بينهما، وكذا المدارس النحوية العالمية.

فيما له صلة بالمفهوم الأول، وهو اللغة، فإننا نلقيه قد عدّها نظاما، وذلك بناء على أنّ سيادة اللغة في كل زمان أو مكان بوصفها الشكل المفسّر ضمن سلسلة من المقولات المشكّلة نسقا، يجعل من اللغة - على حدّ تعبيره - حالة، وهكذا يصل هلمسلف إلى إمكانية مفادها أننا بمقدورنا أن نطلق على هذا الأمر مفهوم " النحوي ". ويرى هلمسلف بأنّ هذا المفهوم هو الأقدم من بين المفاهيم اللغوية التي أنتجت اللسانيات.⁷

بعد أن حدّد المفهوم الأساس الذي هو النحوي، قام هلمسلف بتمييزه عن مفهوم آخر هو "اللانحوي"، على أنه مفهوم يخالف تماما المفهوم النحوي؛ لذا يعد النحوي في أدبيات اللسانيات التاريخية والمقارنة أمرا تكميليا أو تحسينيا في اللغة، على اعتبار أن اللسانيات التاريخية والمقارنة هي علم مؤسس على ضوابط وقواعد مغايرة هي الأخرى للأسس التي أنشأ عليها مفهوم النحوي.⁸ هذا في جانب، وفي جانب آخر يقول هلمسلف: "فإن وجد في أي وقت مضى شكل للفكر مسيطر على مادة اللسانيات، فإنّ هذا الشكل (الفكري) يكون خارجا عن مفهوم اللسان نفسه، فلا يعد أمرا جوهريا، بل هو أمر عرضي"⁹ ليس إلّا.

ويقرر هلمسلف مرّة أخرى بأنّ كلا " المفهومين النحوي و اللانحوي لهما قيمة متساوية؛ لأنهما كلاهما يتطابقان مع وقائع اللغة "¹⁰، فضلا عن ذلك إمكانية التحقق منهما في إطار المشاهدة الإمبريقية؛ وبعد أن أشار إلى كون مفهوم النحوي قد تعرض إلى عفاء تام¹¹، شرع يبيّن بأنّ هذا المفهوم، على الرغم من ذلك، فهو الذي سيحظى بدراسة في كتابه مبادئ النحو العام، يقول هلمسلف موضحا ذلك: " ينبغي لنا - إذاً - اختبار قيمة ومنزع هذا الذي نطلق عليه مفهوم النحوي، إنّها القضية التي سنشتغل عليها في الصفحات الآتية "¹².

يتبين لنا مما تقدم أن هلمسلف مهّد بدراسة هذه المفاهيم الأولية والأساسية، لغرض واحد هو معرفة مصادر مفهوم " النحوي "، ونعني بالمصادر هنا المدارس اللسانية التي عرفت الحضارة الإنسانية القديمة بوصفها منبع العديد من المفاهيم التي توظفها مختلف النظريات والتيارات اللسانية الحديثة والمعاصرة؛ لذا نلفيه يركز أكثر على مفهوم " النحوي " باعتباره منفذا يتوسل به إلى وضع تصنيف للمدارس اللسانية والمدارس النحوية القديمة منها خاصة. إنه مفهوم جوهري في هذا المنظور الهلمسلفي بالمقابلة مع الخاصية العرضية أو التحسينية التي منحتها له اللسانيات التاريخية والمقارنة.

وعليه، يقول هلمسلف في هذا الصدد مايلي: " إنّ مفهوم النحوي مثلما هو لدينا في علم اللغة، له بالجملة أصل في النحو الإغريقي لاتيني منذ القدم، وفي النظرية السكولائية التي منها تطور "¹³. فيكون بذلك مفهوم النحوي ممتدا بجذوره إلى أبعد حقبة في التاريخ، أو هو مفهوم أقل ما يقال عنه أنه ذو أصل إغريقي ثم لاتيني، وردّ هلمسلف هذا المفهوم إلى الحضارة الإغريقية يتضمن دلالات ومرجعيات فكرية ولسانية وإيديولوجية أيضا، أو بعبارة أخرى؛ لم جعل هلمسلف مبدأ هذا المفهوم هو الحضارة الإغريقية ولم يجعل مبدأه حضارة إنسانية أخرى سبقت أو تلت الحضارة الإغريقية ؟

يرجع هلمسلف نشأة مفهوم النحوي في إطار الحضارة الإغريقية إلى أرسطو، أي أول ما بدأ هذا المفهوم بالظهور بدأ مع أرسطو، ثم خضع لتعديلات وتطويرات عديدة عبر مراحل تاريخية مختلفة، يبين ذلك بقوله: " بدأ مع أرسطو وكذا مع الرواقين، خاصة كريسيب **Chrysippe**، وأكْمِلَ مع دوناتوس **Donatus** (ca 350) وبريسيان **Priscien** (ca 500). لقد انتهت هذه النظرية بفرض نفسها على النحو الحديث بأكمله. إنّ تاريخ هذا التطور حدث مرات عديدة... "¹⁴. فأصل هذا المفهوم كما هو واضح في نظر هلمسلف هو الحضارة الإغريقية بوجه عام، والفكر الأرسطي بوجه خاص بدليل ما سيعرض له لاحقا.

ويواصل هلمسلف تتبعه لتطور مفهوم النحوي، فقد عرّج بعدد على ذكر بعض الشخصيات النحوية التي تأثرت بما نظّر له أرسطو في خصوص مفهوم النحوي في العصر الوسيط، وخلال الحقبة الزمنية الممتدة من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر الميلاديين؛ قال هلمسلف: " إن تأثير هذه الأفكار لا يوجد فقط في الأنحاء التي عالجت اللغات الكلاسيكية، ولكن في مختلف الأنحاء القومية المؤرخة في المنتصف الأخير من العصر الوسيط"¹⁵، على غرار الأنحاء: البروفنسالي والغالي والإسلافي، باعتبارها أنحاء للغات تتكلمها قوميات معينة.

لم يتوقف تأثير أرسطو على الرواقيين ونحاة العصر الوسيط في أوروبا وحدها، بل تعدى ذلك ليصل إلى الحضارة العربية والإسلامية، ففي اعتقاد هلمسلف أن أرسطو قد أثر تأثيراً معيناً في ظهور الفكر اللغوي العربي والنحوي معاً، وقد أكد على ذلك في قوله: " في النهاية - ومن دون ارتباط مباشر بهذه الأعمال - ولكن المؤرخة في الحقبة نفسها والمتأثرة أيضاً بأفكار أرسطو، نلفي النحو العربي بلغ الذروة مع الزمخشري، وكذا فيما يخص أجزاء الخطاب من قبل مع الخليفة عليّ"¹⁶ رضي الله عنه.

يحتاج هذا القول إلى وقفة متأنية بعض الشيء؛ لأنه قول يتضمن مغالطة ينبغي لنا بيانها، ذلك أن الذروة التي بلغها النحو العربي لم تكن في عهد الإمام الزمخشري؛ بل بلغ النحو العربي مرحلة التراكم والنضج مع الإمامين الخليل بن أحمد الفراهيدي وتلميذه سيوييه خاصة، وقد أشار إلى ذلك أيضاً مصحح كتاب مبادئ النحو العام في آخره¹⁷، بالإضافة إلى هذا، فإن النحو العربي لم يكن تابعا أبداً للمنطق الأرسطي، خاصة في البدايات الأولى وحتى مرحلة النضج كما نص على ذلك هلمسلف؛ لأن الفروق بين النحو العربي والمنطق الأرسطي كبيرة جداً، ذلك أنّ " النحو العربي قد أسس على الغرض الذي منه خلق اللسان، وهو الإفادة، فغرضه لغوي محض؛ إذ يجعل الاسم والفعل عمادين للحديث وهو ما يجري بين المتكلم والمخاطب.... فالاسم والفعل لا يطابقان الاسم والكلمة كما يفهمهما أرسطو؛ بل قد يوافق هذان المفهومان المحدث عنه (المسند إليه) والمحدث به (المسند)، بشرط أن يعتبر فيهما التصديق والتكذيب، أي: من حيث صحة الحكم وبطالانه"¹⁸، وهنا مكنى المفارقة بينهما، فلا مسوغ لجعل النحو العربي متأثراً بالفكر المنطقي الأرسطي بدعوى أن النحاة العرب القدماء قد اقتبسوا من أرسطو تقسيمه للكلام إلى ثلاث مقولات كبرى هي الاسم والفعل والحرف، وهو ما عبّر عنه هلمسلف بقوله: أجزاء الخطاب، فهذا الآخر مجرد زعم كان لهلمسلف مقتنيا فيه أثر أسلافه من المستشرقين الذين ذهب بعضهم إلى سلب كل مزية عن التراث اللساني العربي، والنحوي تحديداً؛ لأنهم زعموا أن العرب لم يعرفوا تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف إلا بعد تأثرهم بأرسطو، فلا بد - كما قال عبد الرحمن الحاج صالح - " قبل كل شيء أن نعرف أين وفي أي كتاب صرّح أرسطو بذلك، ثم غرض النحو من لفظي الاسم والفعل غير غرض أرسطو منهما؛ لأنه يرى فيهما ما يسميه الموضوع والمحمول، والمجموع يكون دائماً حكماً عقلياً ولا يهتم أرسطو بالجانب اللغوي لهما"¹⁹، وهذا كله مبني على أنّ الأحكام التي أصدرها بعض المستشرقين - على غرار دوبرار De Boer، وبول كراوس P.Kraus، ومركس Merx، وفلايش H.Fleish، وغيرهم كثير - في حقّ النحو العربي من سلبه كل خاصية تفرد بها سواء أمن جهة المعرفة أم من جهة المنهج، ثم جعلهم له تابعا في الأقل إلى منطق أرسطو، هي عندهم وعند من سار على خطاهم حقائق وبدييات لا تقبل الدحض أو التنفيذ²⁰، وهو أمر جلي جداً في كلام هلمسلف المتقدم وفي كلامه الآتي المتعلق بسيادة تلك المبادئ النحوية الأساسية التي توصل إليها العقل الإغريقي وتبناه من بعد ذلك السكولائيون؛ بحيث قال ما هذا نصه: "تسود هذه المبادئ - إذاً - العالم بأكمله، وما زالت تسوده؛ فإذا وجدت دول في منأى بحيث لا

يستطيع تأثير العلم اللاتيني من الوصول إليها، فإنّ هذه الدول ستبقى خارج دائرة التطور العلمي الذي أنجز في أوروبا فيما بعد...²¹.

ينطوي هذا القول على نظرة دونية تجاه سائر الحضارات والشعوب التي ليست أوروبية، ويدل دلالة واضحة على عدم اطلاع هلمسلف على أنحاء اللغات غير الأوروبية بما فيها اللغة العربية ونحوها، هذا في جانب، وهو في جانب آخر يكشف عن نزعة وتعصب كبيرين لكل ما أنتجه العقل الأوروبي، مما كان سببا مباشرا في وقوعه في مغالطات وتمويهات إيديولوجية ما كان لها أن تكون لولا التقليد التام لأرباب وكبار المستشرقين المتحاملين على المنجز العربي التراثي.

إنّ جهله بما أنتجه العقل اللغوي العربي الإسلامي في ميادين النحو والصرف والبلاغة والمعجمية والدلالة أدى به إلى الوقوع في شرك ما قرره أسلافه المستشرقون الذين تصدوا لدراسة ومناقشة الفكر اللساني العربي، على هذا الأساس يكون حكمه بتبعية النحو العربي إلى منطق أرسطو ومن ثم سلبه كل خاصية تصيّر نحو متميزا ومتفردا معرفة ومنهجيا، ونظريا وعمليا هو حكم ظني لا يرقى إلى مرتبة القول العلمي الموضوعي.

أما قوله بأنّ هذه المبادئ النحوية سادت وتسود العالم بأكمله، فليس يُسلم له بذلك؛ لأننا نتساءل عن المقصود بالمبادئ هنا؟ فإذا كان يقصد بالمبادئ النحوية التي وضعها نحاة العصر الكلاسيكي اليوناني واللاتيني؛ بحيث صارت هي المسيطرة والسائدة في العالم بأسره قديما وحديثا، فهذا كلام ليس دقيقا البتة، ولا هو بالموضوعي إطلاقا؛ لأنه توجد في مقابل ذلك مبادئ كلية مشتركة بين جميع الألسن البشرية، فليس للسان بشري معين حاجة في أن يقتبس من لسان بشري آخر المبادئ المذكورة، أو أن ينتظر لسان لسانا آخر حتى يمتدّ عليه بالمبادئ التي توصل إليها اللسان الثاني، مادامت هي موجودة فيه كما في غيره من الألسن البشرية الأخرى، قديما كان اللسان أم حديثا، ميتا أم حيا؛ لأنه أمر كلي، أي: هو كلية لسانية نلغها في الألسن البشرية كلها.

وأما إن كان يقصد بالمبادئ ما هو مشترك بين الألسن البشرية، فهذا أيضا فيه نظر، استنادا إلى قوله المتقدم " إذا وجدت دول في منأى..... إلى قوله : فيما بعد "؛ لأنه جعل اللغة أو اللسان اللاتيني هو اللسان الأموزجي ونحوه هو النحو الأكفى الذي يجب أن ينتحى، أو هو النحو الذي ينبغي للألسن البشرية أن تتخذه منوالا في بناء أنحائها الخاصة، وهذا ظاهر في كلامه على البلدان البعيدة عن التأثير اللاتيني بوصفها بلدانا خارجة عن دائرة التطور العلمي والحضاري؛ لأنها لم تحتك باللسان اللاتيني في نظره، وهذا فيه من الغلو والتعصب ما هو بين بنفسه، وفيه أيضا عدم دراية بخواص الألسن البشرية الأخرى، فضلا عن تضمينه للنزعة اللوغوسنتريزمية على حدّ تعبير التفكيكي .

إنّ رأي هلمسلف هنا لم يكن ليشذ عن آراء كبار المستشرقين في ظنهم بأن العرب ما كان لهم أن يبلغوا بلغتهم ما بلغوه من دقة وموضوعية في التحليل والتفكير اللساني بوجه عام لولا الفكر الفلسفي والمنطقي الإغريقي، أي: إنّ العرب لم تكن لهم خاصية التفكير الفلسفي والعقلاني كما كان الأمر شائعا عند الإغريق؛ لأنّ دقة التفكير اللغوي الإغريقي وما توصلوا إليه من بحوث علمية في شتى الميادين يرجع إلى امتلاكهم لآلة المنطق وقوة النظر الفلسفي، وهذان الأمران أو الشرطان تفتقر إليهما الحضارة العربية والإسلامية في نظرهم جميعا، يقول فلايش في هذا الصدد : " عدموا تلك الكفاءة التي تؤهل الإنسان للتفكير والتحليل والإشراف على مادة البحث حتى يمكن بناؤها على هيئة، وكل ذلك لا يتيسر إلا لمن

كسب ثقافة فلسفية "22". ففي هذا المنظور الفكري ذي الصبغة الإيديولوجية الواضحة تكون البحوث العلمية التي أنتجها العلماء العرب القدامى في مختلف المجالات بما في ذلك النحو لا قيمة لها إلا إذا كانت متبينة لخواص الفكر العلمي والفلسفي على الطريقة الإغريقية، ومعلوم أن هذا التوجه يتضمن غلوا فكريا وإيديولوجيا حادّين؛ إذ جعل النحو الإغريقي لاتيني هو النحو الأكفى الأنوذجي - بدليل ما تقدم من كلامه - يعني بالضرورة إرغام سائر أنحاء اللغات الإنسانية الأخرى - والنحو العربي من جملتها - أن تقتفي سمت النحو الإغريقي لاتيني، ومن شأن معتقد مثل هذا ألاّ يعترف إلاّ بصيغة واحدة للعلم وهي العلم الغربي عموما والإغريقي لاتيني خصوصا، وأنّ مهّد العلم لا يخرج عن حدود القارة الأوروبية، وهذا واضح من إطلاقه القول في ذلك.

ومما هو لافت للنظر في كتاب هلمسلف " مبادئ النحو العام " هو تصنيفه للمدارس النحوية العالمية أو الكبرى، مع قيد إيديولوجي يتحلّى في الحفاظ على حظوة النحو الإغريقي لاتيني بالمرتبة الأولى في التصنيف، مما يضاعف النزعة اللوغوسنتريزية لديه، يقول مبينا ذلك : " ابتكر في اليابان منذ زمن بعيد نحو جدّ مناسب للسان الأهلي، وربما هي الحالة نفسها في الصين "23، ثم ينتقل بعدها إلى النحو السنسكريتي قائلا : " إنّ النحو السنسكريتي هو من دون شك ذلك النحو الذي نعرفه جيدا من كل هذه الأنحاء الأجنبية، والحال هذه، لم يستطع النحو السنسكريتي نفسه التأثير في النحو الأوروبي إلاّ سطحيا، وبصفة عابرة... "24.

يشير القول الأول إلى تحوّل عالميين هما الياباني والصيني باعتبار اليابان والصين حضارتين قديمتين جدا، ولكنه قول يفضي بنا إلى التساؤل عن مسوغ اعتراف هلمسلف بالتحوّل الياباني والصيني وهما - أعني اليابان والصين - من الأقطار البعيدة جغرافيا عن التأثيرات الإغريقي لاتينية، أو بعبارة أخرى، يفترض أن تكون اليابان والصين من الأقطار الخارجة عن دائرة العلم كما نصّ وقرّر هلمسلف من قبل، فكيف استطاعتا أن تؤسس لنحوين عالميين وهما بعيدتان عن التأثيرات الإغريقي لاتينية ؟

وفي جانب آخر، يشير القول الثاني إلى النحو العالمي الثالث وهو النحو السنسكريتي، ويعد الأكثر قربا من النحو الإغريقي لاتيني كما هو ظاهر كلامه في الأقل، وعلى الرغم من ذلك يبقى النحو الإغريقي لاتيني نحوا خالصا وأنوذجيا بحكم أصالته وعدم تأثره جوهريا بنماذج نحوية أخرى، وإن كان النحو السنسكريتي قريبا منه جدّا.

في حقيقة الأمر يضعنا هذا القول أمام العديد من الإشكالات خاصة تلك التي لها بعد إيديولوجي صرف، بالنسبة للفكرين الغربي عموما والهلمسلفي خصوصا، من قبيل مركزية حضور الفكر الغربي عبر مرّ العصور؛ لأنّ الإصرار على صفاء وأصالة وعدم تأثر النحو الإغريقي لاتيني بغيره يحيل إلى أبعاد أخرى ليست هي لسانية البتّة، كما يمكّننا من التساؤل مرة أخرى عن معنى قوله: " إنّ النحو السنسكريتي هو من دون شك النحو الذي نعرفه جيدا "؟ أو بعبارة ثانية؛ ما حقيقة وطبيعة العلاقة التي تربط اللغات الهندوأوروبية باللغة السنسكريتية، ومن ثمّ قُرب النحو الإغريقي لاتيني من النحو السنسكريتي ؟ هل هذا مؤسس على كونهما من عائلة لغوية واحدة هي الهندوأوروبية ؟ قد يكون الأمر كذلك خاصة إذا علمنا أن لهلمسلف كلاما يؤكد على هذا الارتباط في غير كتاب المبادئ؛ بحيث قال في سياق حديثه عن القرابة اللغوية الوراثة مايلي : " تنتمي لغتنا الخاصة إلى العائلة اللسانية التي نسميها عادة العائلة الهندوأوروبية، كذا تسمى؛ لأنها تشمل على لغات يُتكلّم بها في الهند ولغات يتكلّم بها في أوروبا.... "25. وذكر بعد ذلك المسوغات التي جعلته يتخذ

العائلة اللغوية الهندوأوروبية مادة للدراسة، منها سعة انتشارها جغرافيا في العالم؛ إذ بلغ عدد متكلميها المليار ونصف المليار من تعداد سكان العالم²⁶.

بيد أننا إذا أخذنا قوله بشيء من التريث والإمعان، تجلّى لنا أنه كان أيضا مقلدا لسلفه من اللسانيين الذين ارتكزوا على فكرة أنّ اللغة السنسكريتية هي اللغة الأكثر قربا من اللغات الأوروبية، وهذه الفكرة التي اتخذت مبدأ في التأريخ للدراسات اللسانية عموما، وكونها إحدى الأوليات التي يمكن صياغة نظرية لسانية²⁷ ونحوية كذلك كما يرى هلمسلف، هي عند التحقيق لا تعدو أن تكون مجرد فرضية أو تخمين، وبما هي كذلك فإنها جائز أن تثار حول صحتها ويقينها شكوك قوية.

بناء على ذكره للأنحاء الأربعة وهي: الياباني، والصيني، والسنسكريتي والإغريقيولاتيني تتلخص لديه المدارس النحوية الكبرى باعتبارها منابع لكل تفكير نحوي في العالم، يقول في ذلك: " حاصل القول إذاً: توجد أربع مدارس نحوية"²⁸، ثم عددها قائلا: " المدارس هي: الإغريقيولاتينية، والهندية، والصينية، واليابانية"²⁹، ومفهوم النحوي تطور مع هذه المحطّات الأربع أو المدارس النحوية الكبرى في نظره، وبهذا نراه لا يدرج النحو العربي ضمن هذه المدارس التي عددها، وهذا إقصاء منه صريح للمنجز النحوي العربي؛ لأنّ العرب لم يكن لهم أدنى إبداع أو تميز في الأقل في دراساتهم للغتهم العربية خاصة، وكنا قد بيّنا أنه كان مقلدا لسلفه المستشرقين الذين يتبنون نزعة ذاتية أقل ما توصف به أنّها نزعة بغيضة ومتعصبة ضد كل ما هو عربي وإسلامي. إنّها نزعة يصطلح عليها بعضهم بمصطلح الذهنية **le mentalisme** وهي أنّ الواصف للغة مجهولة لديه يميل بطبعه إلى أن يتخيل فيها مفاهيم ومراتب ومجاري يستمدّها من لغته الخاصة، أو من مذهب نظري يختص به"³⁰. وبما هي كذلك، فإنها تكون إيديولوجيا لا تؤمن إلا بما هو غربي فقط.

إنّما إيديولوجيا ترى في العالم الغربي مركزا للعالم كله، وقد تجلّى هذا الأمر في فقرة هلمسلف يتحدث فيها عن بعض خواص المدرسة النحوية الإغريقيولاتينية، قال ما هذا نصه: " إنّ ما تتميز به المدرسة الإغريقيولاتينية قبل كل شيء، هو أنها كانت الوحيدة التي تنغيا تطبيق مبادئها على سائر الألسن البشرية، وهذا هو الذي حدث في كل مكان من العالم إبان الحقبة الحديثة، وكذا مبادئ هذه المدرسة هي التي زوّدت علم النحو بقواعد فريدة"³¹، يفهم من كلامه هذا أمران: الأول منهما هو أن المدرسة الإغريقيولاتينية سعت لجعل مبادئ نحوها مطبقة على سائر الألسن البشرية، وقد كُنّا أشرنا إلى ذلك عند عدّهم النحو اللاتيني هو النحو الأكفَى والأنموذجي الذي لا بد أن يُتّحَى، وهو عين ما تدعو إليه اللسانيات الكلية والنحو الكليّ في الوقت الحالي.

أما الأمر الثاني، فإنه ينزع منزعا إيديولوجيا وتاريخيا، ذلك أن التاريخ يذكر بأن الرومان بقدر ما كان حرصهم شديدا على تحقيق التوسع السياسي والإداري في العالم القديم كله، قابله طموح ورغبة في تحقيق توسع لساني عبر فرض النظام اللساني والنحوي الروماني على الألسن والأنحاء العالمية، فتصير تابعة لها سياسيا وإداريا ولسانيا، وما شذ عن ذلك يعد خارجا على ذلك النسق، وعلى تيار التحضر والعلم والفكر الروماني في خاصة فكر هلمسلف في الأقل؛ وإذا كان ذلك كذلك، كانت عقيدة مركزية العقل الغربي حاضرة في فكره بقوة كما هي في فكر غيره ممن آمن بها وعمل على ترويجها.

6. الخاتمة:

خلاصة القول هي، أنّ هلمسلف لم يكن مطلعاً على ما أنتجه العلماء العرب في ميدان الدراسات اللسانية والنحوية العربية، وهذا ما أدى به إلى عدم الاهتمام بالنحو العربي، ومن ثمّ منحه منزلة هامشية في كتابه المبادئ، والعلّة في ذلك كله هي التقليد المطلق لسلفه من المستشرقين الذين رَوّجوا بقصد أو بغير قصد، بعلم أو بجهل، لفكرة أن البحوث اللسانية العربية والنحوية على وجه التحديد، لم تقم لها قائمة إلا بعدما تأثر العلماء العرب بما خلفه فلاسفة اليونان من منطق وفلسفة كانا الباعث والمحفز والسبب المباشر في نشوء هذا التفكير اللساني والنحوي العربي.

7. المراجع:

الكتب :

أ/ العربية:

1. ابن شماني محمد " النظرية الغلوسيماطيقية وتحليلاتها في الدرس اللساني العربي مقارنة إيبستيمولوجية"، منشورات جامعة الكوفة، سلسلة دراسات فكرية (لبنان 2019).
2. أن إينو، " تاريخ السيميائية"، ترجمة رشيد بن مالك، منشورات مختبر الترجمة والمصطلح، و دار الأفاق (الجزائر 2004).
3. عبد الرحمن الحاج صالح، " بحوث ودراسات في اللسانيات العربية " موفم للنشر (الجزائر 2007).
4. عبد القادر المهيري، " نظرات في التراث اللغوي العربي" دار الغرب الإسلامي (لبنان 1993).
5. هلمسليف، "حول مبادئ نظرية اللغة" ترجمة جمال بلعربي، منشورات الاختلاف (الجزائر 2018).
6. هلمسليف، "مداخل لنظرية اللغة" ترجمة يوسف إسكندر، منشورات جامعة الكوفة، سلسلة دراسات فكرية (لبنان 2018).
7. يوسف إسكندر، " أبحاث في الغلوسيماطيقا " منشورات جامعة الكوفة، سلسلة دراسات فكرية (لبنان 2019).

ب/ الأجنبية:

8. Knud Togeby, Louis Hjelmslev , in Studia Néophilologica published Online.21 jul 2008
9. John Lyons, linguistique générale, tr, F.Dubois Charlier et D.Robinson, Larousse. Paris 1970. -
10. R.H. Robins, brève histoire de la linguistique, tr, Maurice Borel du Seuil, Paris. 1976.
11. Hjelmslev, prolégomènes à une théorie du langage, tr Una Langer, ed de Minuit Paris, 1968.
12. Hjelmslev, principes de grammaire générale, 2eme ed, KoBenhavn. 1968.
13. Hjelmslev. : le langage , tr : Michel Olsen, preface A.J.Greimas, ed de Minuit Paris 1966.

8. الإحالات:

1- Voir : Knud Togeby, Louis Hjelmslev , in Studia Néophilologica

Hjelmslev.L : le langage et la grammaire générale, tr : Michel Olsen, preface A.J.Greimas, ed de Minuit Paris 1966. p. 10-7

وقد نقل الدكتور يوسف إسكندر الترجمة المفصلة التي كتبها توجيبي إلى العربية ونشرت ضمن كتاب أبحاث في الغلوسيماطيقا، تحرير و ترجمة يوسف إسكندر، منشورات جامعة الكوفة، سلسلة دراسات فكرية . بيروت لبنان ط1/2019 ص 19-33

2 -voir : Hjelmslev, prolégomènes à une théorie du langage, tr Una langer, ed de Minuit paris, 1968.p 103. Et 123-124.

- 3 - ينظر في خصوص هذا الكتاب : ابن شماني محمد، النظرية الغلوسيماتيقية وتجلياتها في الدرس اللساني العربي مقارنة إبستمولوجية، سلسلة دراسات فكرية. منشورات جامعة الكوفة، بيروت لبنان ط1/2019. أما فيما له صلة بترجمة هذا الكتاب - المقدمات - فقد ظهرت ترجمتان عربيتان مترامتان سنة 2018، واحدة في الجزائر عنوانها : حول مبادئ نظرية اللغة، هيلمسلاف، ترجمة الدكتور جمال بلعربي منشورات الاختلاف الجزائر ومنشورات ضفاف بيروت لبنان ودار الأمان المغرب، ط1/2018. وترجمة الدكتور يوسف إسكندر ظهرت في العراق ضمن سلسلة دراسات فكرية التي تصدرها جامعة الكوفة، وعنوانها: مداخل لنظرية اللغة، لويس هيلمسليف، ترجمة يوسف إسكندر، مراجعة الدكتور حسن ناظم ط1/2018. وكلا الترجمتين كانتا عن النسخة الإنجليزية التي قام هلمسليف نفسه بمراجعتها
- 4 - لقد وصفت آن إينو كتاب المقدمات بقولها: " لكل واحد طريقتة في الاقتراب من هذا المؤلف الذي يميل إلى التجريد. إن هواة السبل السهلة يفضلون من دون شك البدء بنقل مقابلات ومحاضرات موجهة إلى الجمهور العريض ... أما هاوي السبل الوعرة فإنه سيتجه فوراً إلى مقدمات في نظرية اللغة " تاريخ السيميائية، ترجمة رشيد بن مالك. منشورات مختبر الترجمة والمصطلح. جامعة الجزائر. ودار الأفاق الجزائر. 2004. ص 64-65.

5 -Voir; Knud Togeby. Louis Hjelmslev. p 269-278

6- voir: Hjelmslev, principes de grammaire générale, 2eme ed, KoBenhavn.1968.p 01.

7- voir; ibid, p 07.

8- voir; ibid, p 08.

9- ibid, p 08.

10- ibid., p 08-09.

11- voir; ibid., p 09.

12 -ibid, p 09.

13- ibid, p 10.

14 ibid, p 10.

15 - ibid, p 10.

16- ibid, p 11.

17 - voir; ibid ,p 363.

18 -عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية.موفم للنشر الجزائر.ط2007. ج 55/1.

19 -المرجع نفسه، ج 42/1.

20 -المرجع نفسه، ج 44/1-45. وينظر أيضا: عبد القادر المهيري، نظرات في التراث اللغوي العربي. دار الغرب الإسلامي بيروت ط1/1993 ص 85-86.

21- Hjelmslev, Principes p11.

22-عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية. ج 46/1.

23 -Hjelmslev, principes, p11.12.

24 -Hjelmslev, principes, p11.12.

25 -Hjelmslev, le langage, p31.

26 -voir : ibid. , p 31

27 - John Lyons, linguistique générale, tr, F.Dubois Charlier et D.Robinson, larousse. Paris 1970.p 18-

20.et R.H.Robins, brève histoire de la linguistique, tr, Maurice Borel du Seuil, paris. 1976.p 139 – 145.

28 -Hjelmslev, principes, p12.

29- Hjelmslev, principes, p12.

30-عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية. ج 48/1.

31- Hjelmslev, Principes, p12.